

تمهيد

(أ) لماذا لم تحقق دراسة تاريخ
المسيحية التقدم المرجو لها - أسباب
خارجية وعلل ذاتية - النقص في
مصادر التحقيق والخطأ القديم في
عرض المسائل - الفوضى التي جلبها
أهل الجدل والمتعصبون - نظريات
حديثة .

(ب) صورة عامة للمسيحية من
وجهة نظر المؤرخ .

(١)

نستطيع اليوم أن نسجل الدراسات النقدية لأصول المسيحية ولتطور الكنيسة في سجل العلوم التاريخية . ولكن هذه الدراسات لم تحرز من التقدم ما قد يخيل إلينا أنها أحرزته إن اكتفينا بإحصاء الكتب التي ألفت والتي يزداد عددها يوماً بعد يوم . وهي كذلك لم تصل في بعض نتائج تحقيقاتها إلى تلك المرتبة من النجاح والوثوق ، التي ارتفعت إليها بعض العلوم التاريخية الأخرى . وكان هذا سبباً من الأسباب التي مازالت تدفع بالكثير من المثقفين وبجمهور القراء أو المستمعين ، إلى مواجهتها بقدر موفور من الريب ، بل تدفعهم إلى ما هو أخطر من ذلك ، إلى اللامبالاة .

وإذا كان هذا الموقف - موقف الريب أو اللامبالاة - عديم الأهمية أو يكاد في البلاد البروتستانتية الغربية ، الجرمانية الثقافة ، فإنه في البلاد ذات التقاليد الكاثوليكية والروح اللاتينية ، يشكل عقبة كثوداً صماءً ، يعسر التغلب عليها ، ويتلاشى أمامها كالحبء الكثير من الجهد والوقت .

ولكننا برغم ذلك نستطيع أن نؤكد أن علم تاريخ المسيحية ليس مشغولاً وحده عن تأخره ، وأنه بذل جهداً كبيراً ليلحق بركب التطور ، وأنه اليوم قد وصل إلى نتائج هامة في سائر المجالات ، وإلى براهين أصيلة في المواضيع الأساسية .

ولقد ظل المدخل إلى معرفة المسيحية الأولى - حتى منتصف القرن التاسع عشر - محرمًا تحريمًا بآثًا على العلماء المترهين عن الغرض ، أي على هؤلاء الذين

لا يعينهم استغلال الحقيقة لمصلحة مذهب معين ، بل يبغونها خالصة لوجهها . وكان الرأي العام يؤمن بأن دراسة تاريخ المسيحية إنما هي الساحة التي لا يحول فيها إلا رجال الكنيسة وأهل اللاهوت . وكان يؤمن بأنها لازمة من لوازم الدفاع عن المسيحية ، أو - في تعبير أكثر دقة - صورة من صور هذا الدفاع ، ولم يخرج الرأي العام في إيمانه هذا عن جادة الصواب ، فتاريخ المسيحية لم يكن سوى هذا أو ذلك ^(١) . وقد خبر الناس ، منذ عصر الإصلاح الديني ، أساليب فقهاء الجدل من البروتستانت أو الكاثوليك : يغتفون اغترافاً من موارد النصوص القديمة التي لا تنفد ، والتي يجد فيها كل فريق ما يروقه من الأدلة والبراهين .

وفي القرن الثامن عشر نرى أعداء الكنيسة الكاثوليكية ، من رجال السياسة ومن الفلاسفة ، الذين يحكمون على عقائدها بالتهاوت ، يتأسون بخطى أهل الجدل البروتستانتي في نقدها ، وينهجون مناهجهم الجدلية أحياناً ، ولكنهم في نقدهم - في كلتا الحالتين - لم ينتزهوا عن الغرض ، ولم تتميز كتب أولئك عن رسائل هؤلاء إلا في المزاج والأهداف .

وخلاصة القول أن المفكر المنصف في بداية القرن التاسع عشر لم يكن يرى ، في غالب الأمر بين الباحثين في تاريخ المسيحية إلا شادياً بالكنيسة المسيحية ، مثنياً عليها ، أو ساعياً لهدمها ؛ ولم يكن له ، في غالب الأمر أيضاً ،

(١) مهدت دراسات الفحول من مجاعة القرنين السادس عشر والسابع عشر أمثال توماسان وتيومون ومايون وروينار ورينشار سيمون - لكتابة تاريخ المسيحية الصحيح ، إذ فرضت مبادئ للبحث وحققت أمثلة معينة من المسائل المختلف عليها . ولكنها في حد ذاتها لا تكون تاريخاً كاملاً صحيحاً للمسيحية .
(المؤلف)

سوى أن يحكم على دراسة تاريخ المسيحية بأنها لا تفيد إلا في تحقيق غرض من هذين . ومن تلك الفكرة نشأت مواقف دينية ثلاثة اتسمت جميعاً بروح الحذر الشديد تجاه هذه الدراسات ، وإن اختلفت باختلاف العقائد السابقة لكل فريق :

١- فريق يمثل الجهلاء والبسطاء ، ويبقى تحت التأثير الأول للتربية المسيحية التي قبلها ، أو اضطر إليها باديء ذي بدء ، لا يجادل فيها ولا يشغل فكره بها ، خاضعاً في سذاجة ساذجة لما افترض من محرمات ، متجنباً تلك الأحداث التي رأى أن تعاليم الكنيسة تغني عنها وتنتهي عن قراءتها ، مؤمناً بأن الإقدام عليها رجس من عمل الشيطان يؤدي بالنفس إلى التهلكة .

٢- وفريق اتجه إلى الشك ، لطبع في النفس ، أو اتجه إلى الشك حيث دفعه إليه منطق سطحي متهافت ، فجدد قول شيشرون من : أن الدين حاجة لازمة للشعوب ، تقمع جراح الشهوات ، وتضمن حياة الأخلاق ، وأن المساس بأسس الكنيسة إنما هو مساس بأسس المجتمع القويم ، وراح يعلن هذه الفكرة كمبدأ فرض لا جدال فيه .

٣- وفريق ثالث أخير من أصحاب الفكر الكسلان ، أو المتعلق بتبسيط الأمور ، يتزعون إلى تصوّر الأديان جميعاً في صورة تنظيم متشعب الأطراف للدجل والاستغلال ، يديره دهاة الكنائس من القسس . وهؤلاء لا يرون في المسيحية شيئاً يستحق أكثر من الهزء والسخرية .

لم لا نعترف بالواقع ؟ . . إن جمهور الناس في البلاد اللاتينية لا يزال يعلى بهذه النظريات أغراضه عن دراسة أصول المسيحية والكنيسة ، وجهله بمناهجها وبالمسائل التي تثيرها والنتائج التي تحققها . ولا يزال موقف الهيئات المشرفة على

التعليم يقوم حافظاً على سوء الظن بهذه الدراسات . ففي فرنسا - مثلاً - لا نجد سوى جامعات ثلاث فيها كراسي لتدريس التاريخ المسيحي . ولا يغرنا كثرة المستمعين إلى الأساتذة المعيّنين لها ، فالطلاب المتظمون أقلية قليلة . ولا يمكن أن يتطور الأمر إلا بتطور الأفكار السائدة في التعليم الثانوي ، فشابنا يصل إلى المرحلة الجامعية ولم يبنه تنبيهاً كافياً إلى أهمية تلك المسائل التي وإن كانت تفرضها البرامج الدراسية ويحتمها الحياد العلمي فإن اتجاهات السلطات الرسمية والرغبات العامة لدى الأساتذة تؤدي إلى محاولة التستر عليها ، لا إلى بحثها . والحق يقال : إن الواقع الذي تنطوي عليه دراسة تاريخ المسيحية مسؤل هو الآخر عن تأخرها . فهي لا تنتظم إلا بالتغلب على عقبات كثيرة تقتضي بذل جهود مفضية من شأنها أن تدفع بالكثيرين إلى اليأس ، وهي - فضلاً عن ذلك - لا تغري المبتدئين بمظهر شائق خلاب ، بل إن عبوس أساليبها ، وترددها وشكوكها في مواضيع كثيرة ، ثم حذرنا الشديد من البراهين والنتائج ، كل ذلك يدفع إلى تجنبها ، ويبعد عنها هؤلاء الذين تبهتهم الأحكام الوضعية للعلوم المادية ، وعلى رسلهم أولئك الذين لا يصبرون على الجد وعمق البحث .

وأول الصعاب التي تعترضها نجدها في النصوص نفسها التي تتماز من سائر النصوص الأخرى بضعف السند وبالاضطراب وعسر التحقيق . وأقدم هذه النصوص وأهمها - لأنها تتناول حياة المسيح والزمن الأول للعقيدة - هي تلك التي احتواها « العهد الجديد » ، والتي استلزمت ، قبل إمكان الاعتماد عليها ، تحقيقاً نقدياً دقيقاً مطولاً لم يوشك أن ينتهي . ولم يكن في المقدور ، لفترة طويلة من الزمن ، أن نستخرج العناصر والأسانيد إلا منها ، بحيث اضطروا المهتمون -

من أجل تفهمها - إلى ترتيب المعاني وتهيئة الحواشي والتعليقات ، ولجأوا - حينما أرادوا التسامى بالفكر فوق النصوص - إلى النظريات والفروض . ويا لها من ضرورة مؤسفة ما زال هؤلاء المفسرون يخضعون لامتحانها في الكثير من الظروف ، بل نرى فئة كبيرة منهم تقبلها راضية قارة العين ! . . . وقد يحدث أحياناً ، والتحقيق النقدي في طريقه إلى الإثمار ، أن تكشف وثائق قاطعة في المعاني المختلف عليها ، أو تظهر نظريات وآراء جديدة لها وجاهاتها ، فيعود الباحث من حيث بدأ ، مقيماً عمله النقدي على أسس مختلفة . فلا نستطيع أن نقول إن العرض النظري العام للمشكلات الكثيرة الخاصة بالإنجيل الثلاثة الأولى ، قد تغيرت اتجاهاته منذ خمسة عشر عاماً على التقريب . وتجددت مشكلة القديس بولس . والإنجيل الرابع نفسه الذي ظن أن مشكلته حلت نهائياً ، قد تغيرت وجهات النظر المتعلقة به . إن هذا التردد ، وهذا التخبط النقدي الذي يسهل أن نأقن منه بأمثلة لا حصر لها ، ثم هذا التطور المستمر لوجهات النظر والمذاهب ، ليس له من مرجع سوى علة واحدة ، وهي أننا لا يمكن أن نخلص من الوثائق وحدها إلى تاريخ متكامل منسجم لأصول المسيحية . فمن هذه الوثائق لم يتبق لنا إلا فتات يكثر الشك في البناء المؤسس عليه .

وإن خرجنا من الأجيال الأولى للإيمان ، فإننا نجد أنفسنا أمام عهد قد أظلم الكثير من جوانبه : ذلك هو الذي يشمل القرون الثاني والثالث والرابع للمسيحية ، والذي تكونت فيه العقيدة الأرثوذكسية ، واستقرت النظم الكنسية ، وانتظمت الطقوس الدينية . إن النصوص التي تتعلق به تبعد في غالب الأمر عن الحياد والموضوعية ، وهي على أي حال ليست من الكثرة بحيث

تسمح بالمقارنة والمقابلة إلا فيما ندر من المسائل .

وفي القرن الرابع ، وهو عصر انتصار الكنيسة ، كتب الكثير عنها أو ضدها ، كتبه أعداؤها من المشركين أو من أنصار الفرق المختلفة . ولكن أغلب هذه التآليف قد اندثر وضاع ، ولم يبق منها سوى النذر اليسير الذي لا يدل إلا على عظم الخدمات التي كان يمكن أن تؤديها لو حفظت لنا .

إن التاريخ المسيحي خلال القرون الثلاث التي تكونت فيها الكنيسة - إذا قورن بأي فرع من فروع التاريخ العام في الفترة عينها - لا يحظى إلا بأدنى نصيب من الأسس المكتوبة الثابتة ، فهو يقتصر في غالب الأمر على دراسة مؤلفات أهل الجدل أو الأنصار المتعصبين معتمداً على تصحيحها بروايات مشكوك في أمرها ، تريد أن تكون تاريخية ، ولكنها في الواقع قد حررت في عهود تبعد كثيراً عن الأحداث التي تناولها ، والتي لا يكاد الناس يفهمون تسلسلها .

وهو أيضاً إذا ما تحول إلى البحوث الدينية لا يجد سوى تلك الرسائل التي تعبر عن رأى الأقلية من الفقهاء لا عن روح العقيدة الحية لدى الطبقات المختلفة من المؤمنين البسطاء . ثم هو ، عندما يريد أن يلجأ إلى الآثار ، لا يجد من النصوص المنقوشة إلا ما غمضت معانيه وافتقرت دلائله إلى المزيد من الإثبات ، وكأن أصحاب هذه النقوش قد تفننوا في الغموض والإيجاز . يجب علينا أن نذكر كل هذه الحقائق دائماً إن أردنا الإنصاف . بل إن ذكرها أمر محتم علينا ، فتاريخ المسيحية القديمة لا يشكو فحسب من الصعوبات التي يعانها مثله تاريخ العصور الرومانية والإغريقية ، بل هو بالإضافة إليها كلها يتعثر أمام عقبات أخرى كثيرة خاصة به .

ومن ناحية أخرى يجب علينا الإقرار بأن فقهاء ومؤرخي المسيحية الأولى كثيراً ما أضاعوا الوقت والجهد في بحث مسائل تفتقر أولاً إلى العرض الصحيح . وبلغ منهم الخيال مبلغاً مثيراً ، فظنوا مثلاً أنه يمكنهم أن يستخلصوا من مجموعات النصوص المسيحية وحدها كل ما يحتاج إليه الكاتب لتصوير عصور الكنيسة الأولى تصويراً كاملاً دقيقاً . والواقع الذي قد يدركه هؤلاء العلماء ، أو قد يسهون عنه ، هو أن تلك المحاولة للاعتماد على النصوص المسيحية وحدها نشأت من أصول عقائدية راسخة في نفوسهم ، فهم لم يصلوا إلى حمل عقولهم على النظر إلى المسيحية باعتبارها إحدى الديانات الإنسانية ، بل أرادوا أن يحتفظوا لها بميزة أصيلة تفرق بينها وبين تلك الديانات . وتعليل إرادتهم هذه يعود بنا في نواح كثيرة منه إلى الغرض الديني للوحى .

والرأى المتفق عليه عامة هو أنه للوصول إلى فهم مبدأ المسيحية و « جوهرها » ، وإلى إدراك الأسباب التي نشأت منها ، لا يكفي استيعاب المراجع المسيحية والتحقيق المدقق في التفكير الديني والأخلاق الاجتماعي بين أرجاء العالم اليوناني الروماني ، حيث انبثق الإيمان ونما وتطور ، بل إن سر نشأة هذا الدين وطبيعته الأولى يجب الرجوع في دراسة جوانب كثيرة منها إلى حضارات سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، وكذلك بلاد ما بين النهرين ، وكل هذه البيئة الشرقية التي ظهر فيها بادئ ذي بدء ثم وجد العناصر الأولى للحياة والانتشار . والدراسات الوافية التي تتم في أيامنا هذه للنصوص المنقوشة وللوثائق التي يحملها إلينا الحزف أو أوراق البردى ، أصبحت تضيء جوانب كانت مجهولة من فقه « العهد الجديد » ، ومن أخلاق وتقاليدها وعادات دينية اختصت بها تلك الشعوب التي كتب الكتاب (العهد الجديد) بواسطتها وكتب من أجلها .

وإن تقدم علوم الآثار الشرقية ليؤدى إلى النتيجة عينها .
ومن جانب آخر نرى المتعصبين وأهل الجدل لا ينفكون عن النضال .
فالفرق الأول لم يكتف بأن يبذل قصارى جهده لكى ييث وينمى فى أذهان
المستمعين إلى حججه - وهم جمع غفير - الإيمان بأن الباحثين الأحرار إنما هم
أعداء الدين الذين يزداد خطرهم كلما ازداد ادعاؤهم الإخلاص وعدم
التحزب - لم يكتف الفرق الأول بهذا ، بل أنشأ أهله ، فى المدارس التى
يشرفون عليها وفى الكتب التى يصدرونها ، تاريخاً جديداً للمسيحية يقاومون به
النقد الموجه إليها ، أى أنهم يتظاهرون بتبنى مناهج النقد العلمى دون تحفظ ،
ولكنهم يطبقونها بوسائلهم الخاصة ، وبحيث تؤدى بهم دائماً -
ويا للمعجزة ! - إلى نتائج لا تخرج عن فروض السنن الموروثة ، والغافل عن
الحقيقة لا يميز فى الأمر شيئاً . وكذلك أهل الجدل المعادين للكنيسة يفسرون
لمصلحتهم تحقيقات العلماء ، ولا سبيل إلى دفعهم عن ذلك . والجانب الخامس
فى كلتا الحالتين هو علم المسيحية نفسه ، الذى يفقد تقدير الجمهور ، بل يتعرض
لفتن كثيرة خطيرة . ولا أدل على ذلك من تردد التعبير الشعبى القديم الذى يقول
فى غير ما اهتمام : « كل هذا من شأن القسس وحدهم » ، أو : « من شأن
أعداء القسس » . ولكن الحكيم لا يعجب لهذه الظاهرة أكثر مما يجب ، فهو
يعلم أن القضاء على القشور الكاذبة لا سبيل إليه فى طرفة عين ، بل يستلزم
الصبر والجهد .

إن ما سبق توضيحه ينطبق أكثر ما ينطبق على دراسة تاريخ المسيحية
للقديم . بيد أن تاريخ الكنيسة ، سواء فى العصر الوسيط أو فى الأزمنة الحديثة
والفترة الحاضرة ، يتعرض لعقبات لا تقل عن تلك خطورة ، وإن كانت تختلف

عنها شيئاً ما . فالنصوص ، برغم وفرتها ووضوحها النسبي في غالب الأمر ، يتعذر جمعها لتشتيتها في جهات لا حصر لها . والملاحظ أنه كلما احتوت هذه النصوص على مفهوم يهم الباحث ، أو كلما وجد فيها العالم ما من شأنه أن يطور الرأى الذى يحاول تكوينه عن الكنيسة المعاصرة - سواء كان في ذلك خيراً لها أو هدماً - ثارت الأهواء وسارعت الأحزاب تحاول استخدام هذه النصوص في أغراضها ، بحيث يتعذر أحياناً ، بعد فترة قصيرة ، أن نميز ونحدد مغزاها الحقيقى ومدى ما يحمله من مفاهيم . ويكفى لتوضيح هذا أن تتأمل قليلاً في الجدل الذى ثار حول الكثير من الموضوعات الهامة ، التى نذكر منها على سبيل المثال وفي غير ما ترتيب : مسألة الرهينة ، محاكم التفتيش ، أسباب الإصلاح الدينى ، شخصية لوثر ، روح وسلوك البابوات في عصور مختلفة ، التفسير النسبي للذنوب ، جماعة اليسوعيين ، قائمة الخطايا التى وضعها البابا بيوس التاسع ، نظرية تزويه البابا عن الخطأ ، سياسة البابا بيوس العاشر . . .

إلا أن الزمن ، مع مثابرة العلماء ، كفيل بإزالة كل هذه الصعاب التى تعترض طريق التحقيق الصحيح . والحقيقة تكشف شيئاً فشيئاً وتنجلي عنها عواصف الجدل ، فتفرض نفسها على الناس جميعاً . . .

ولكن دراسة تاريخ المسيحية لم تصل بعد إلى تلك المرحلة الخصبية التى تتسم بالروح العلمية البحتة ، والتى لا يرجو فيها الباحث سوى الوصول إلى الحقائق وتحليلها التحليل الصحيح ، ولا يهدف من ورائها إلى غرض سوى إضافة شىء جديد إلى علمه . وهناك ظاهرتان ما زالتا واضحتين فيما يختص بتلك الدراسات ، وهما : البطء الشديد الذى تسير به في تشييد الصرح العلمى لتاريخ المسيحية ، ثم ذلك الروح العام من اللامبالاة أو الشك الذى نجده

تجاهها، وبخاصة في البلاد اللاتينية حيث يجهلها أكثر المثقفين جهلاً مطبقاً يؤسف له . فإذا ما بحثنا عن الأسباب المتآزرة في خلق وتثبيت هاتين الظاهرتين ، وجدناها في عوامل نستطيع أن نحصى منها الكثير : فن أفكار ثابتة موروثه تضع نطاقاً من التحريم حول الكثير من المسائل الدينية الهامة ؛ ومن أغراض ومصالح مختلفة ، سواء منها الدينية أو الأخلاقية والسياسية والاجتماعية ، تقف حجر عثرة أمام رغبات الباحثين ؛ إلى خوف طبيعي من الانزلاق في خضم الجدل السقيم ، ذلك الجدل الذي لا يمكن وصفه بالإخلاص ؛ ثم العجز والشك الذي يعترف به كل عالم يستحق هذا الاسم في كثير من اليأس والمرارة ؛ والطمع العلمي الخطر ؛ والآراء السابقة لأوانها والقائمة على غير أسس سديدة ، مثل تلك التي يُريد إثبات أن المسيح شخصية خيالية لم توجد بالمرّة ، وتعارض النظريات ، خصومات المفكرين ، وأخيراً ضرورة الجهد المضني المستمر ، للوصول إلى دراك وتتبع كل تلك الأبحاث المعقدة والبراهين المتلوية . .

وبرغم هذا فالقارئ المنصف إن أراد تحقيق الأمر ، لا يجد مناصاً من الاعتراف بأن جهود الأجيال المختلفة من الباحثين لم تذهب سدى ، وبأنهم - بل أقل تقدير - استطاعوا أن يصلوا بكل المشاكل إلى بساط البحث العلمي وضعى ، وبأن عدد المشاكل التي انتهوا فيها إلى حلول يسمح منذ الآن ستخلاص بعض النتائج العامة على أساس قوى سليم .

إننا لم نحط بكل شيء علماً ، وإننا لا نستطيع حتى ادعاء تفسير كل النقاط الجوهرية في كثير من المسائل الخاصة بعلمنا . ولكنه أصبح في الإمكان أن نحدد لى الأقل الاتجاهات الأساسية في تطور المسيحية ، وأن نبين المراحل الهامة من هذا التطور ، ونحلل العوامل الأصيلة فيه ، وأصبح في إمكاننا أيضاً ، برغم

تعذر الاعتماد على الحقائق الإيجابية - أن نفى - في غير تردد - الكثير من الأساطير المتوارثة التي أجهدت المؤرخين زمناً طويلاً معلنين بطلانها .
وليست هذه النتائج بالتى يستهان بها .

(ب)

إذا ما نظرنا في غير تحزب إلى نشأة المسيحية وتطورها ، تاركين جانباً كل ما يتعلق بعلمى اللاهوت وما وراء الطبيعة ، بل منصرفين تماماً عن كل اتجاه إلى إدراك مفاهيم اللاهوت وما وراء الطبيعة ، وجدنا في هذه النشأة وذلك التطور ظاهرة تاريخية جماعية يمكن تحليلها فيما يلي :

ظهر بإقليم الجليل ، خلال حكم الإمبراطور تيريوس ، شخص يدعى يسوع الناصرى ، وصار يتحدث ويعمل حديث وعمل الرسل اليهود ، معلناً قرب قيام مملكة الله ، وناصحاً الناس بالخير حتى يجدوا لأنفسهم إلى هذه المملكة سبيلاً وفي هذه المملكة مكاناً . وقد جمع من حوله بعض الأنصار المخلصين . ولكن حادثاً عنيفاً أنهى حياته فجأة . غير أن عمله لم ينته بانتهائه ، بل سار أتباعه على هداة . ثم نجده بعد فترة وجيزة يوضع في مكان الصدارة من مفهوم دين حقيقى كامل يمتد إلى العالم اليونانى والرومانى ، ويفصل في الوقت نفسه عن الديانة اليهودية .

وتقوى دعائم هذا الدين الجديد شيئاً فشيئاً ، فيضم العدد العديد من الأتباع ، وينتهى إلى إقلاق بال القائمين بأمر الإمبراطورية الرومانية ، فيضطهدونه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقفوا في سبيل انتشاره ، ويتنظم الدين الجديد بعد ذلك في كنيسة تفرض سلطانها على مرّ الزمن .

الإمبراطورية - خلال حكم قسطنطين - على التسامح فيما يختص بشؤونها ، ثم تكسب الأباطرة إلى جانبها ، ثم تحملهم على محاربة الوثنية . ونراها في نهاية القرن الرابع تسود - رسمياً على الأقل - في الدولة الرومانية كلها . وانتصرت العقيدة المسيحية بعد ذلك في أوروبا وانتشرت في الأرض جميعها .

وتلك النتائج التي حققها الدين الجديد ، تبدو لأول وهلة من الضخامة بمكان إذا قارناها بالحدود المتواضعة التي ظن أن يسوع أراد وضعها لرسالته . وهي أيضاً تبدو من الضخامة بحيث لا يستطيع المسيحيون تفسيرها إلا بردها إلى إرادة الله الذي يبغى خلاص أبناء آدم . وبما أن يسوع هو الله - فيما ترى العقائد المسيحية - فالنتيجة الحتمية لذلك : أنه أراد ، وأنه - برغم تضارب الاحداث الظاهرة - نظم مضمون الدين الكامل خلال وجوده على هذه الأرض ، وأن الحياة للمسيحية كلها ليست إلا نمواً ضرورياً للمبادئ التي وضعها . وهكذا ، فإن الكنيسة المسيحية ، وتأسيس وتطور المسيحية على مر الأجيال ، ينبعان خالصين من إرادته . أما السبب في اتخاذه صورة البشر ، وتحمله للألام ، ثم موته ، فهو - فيما ترى الكنيسة - إنشاء العقيدة الصحيحة . هذا إذا اقتصرنا على الظاهر ولم نتعرض لسر الفداء .

ولن نتعرض هنا للحذر الذي لا بد أن يعرب عنه كل مراقب غير متحيز إزاء أحداث هذا التاريخ ، هذا الحذر الذي يتلخص في أن التردد والتغيير والإصلاحات - طفيفة كانت أم متعمقة إلى الأضول - ثم الجدل والتفرق والانقسامات ، كل تلك الظواهر التي اتسم بها تاريخ الكنيسة المسيحية ، لا تتفق كثيراً مع النظرية القائلة بوجود خطة محددة وضعها المؤسس الأول منذ البداية ، وسار عليها التاريخ دون انحراف .

فالعرض العام الذي خططناه بشأن نشأة ونمو وانتصار المسيحية لم يحسب من حساب الأحداث إلا ظاهرها ، ولم يهدف إلى تحليل كيائها الذاتي وإلى تفسيرها حقيقة . إنه لم يبين منها سوى تسلسلها وتربطها من الناحية الزمنية . غير مبال كثيراً بالتسلسل والترابط المنطقي .

وهناك مسائل كثيرة يجب وضعها على بساط البحث بشأن هذه الأحداث أو بشأن تربطها وتسلسلها . وهي مسائل أساسية تتعلق بمبدأ وجوهر المسيحية وبمعنى وتدبير التطور المسيحي . وتلك المسائل هي المادة الحقيقية التي تغذى تاريخ الكنيسة القديمة .